

الإنسان في أدب الرحلات: رسالة ابن فضلان أنموذجاً

محمد بن عبد الرحمن الهدلق

أستاذ، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، السعودية

الملخص

أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، له رسالة مشهورة دون فيها رحلته التي قام بها في عام 309هـ/921م إلى بلاد الترك، والخزر، والروس، والصقالبة؛ فقد أرسله الخليفة العباسي المقتدر على رأس وفد إلى ملك الصقالبة «المش بن بطوار»، وكان هذا الملك قد طلب من الخليفة المقتدر أن يرسل إليه بعثة تفقهه في الدين، وتعرفه شريعة الإسلام، وتبني له مسجداً، وتنصب له منبراً يقيم عليه الدعوة للخليفة في جميع مملكته، وأن يبني له حصناً يتحصن فيه من الملوك المخالفين له.

وقد أجابه الخليفة إلى ما طلب وأرسل إليه بعثة برئاسة ابن فضلان، تضم في عضويتها كلاً من سوسن الرسي، وبارس الصقلابي، ودليل الرحلة رسول ملك الصقالبة عبد الله بن باشتو الخزري، إضافة إلى بعض المساعدين، والخدم.

وابن فضلان هو المعهود إليه بتفقيه الملك في الدين وتعليمه شريعة الإسلام، وتقديم المال الذي بعثه إليه الخليفة معه. وقد واجه الوفد من المشاق والمصاعب ما يشيب له الرأس، ومروا في طريقهم ببيئات معادية، وأخرى مسالمة إلى أن وصلوا بعد لأي إلى عاصمة الصقالبة التي تقع قرب مدينة قازان الحالية، عاصمة جمهورية تاتارستان في روسيا الاتحادية، التي لا تبعد كثيراً عن مدينة موسكو.

وقد وصف ابن فضلان عامة الناس الذين مر بهم وتعامل معهم وصفاً دقيقاً، وبين كثيراً من عاداتهم في الأفراح، والأعياد، والمآدب، والنكاح، وفي المآتم، والأتراح.

كما تحدث عن الملوك الذين قابلهم، وتقاليدهم في استقبال عامة الناس وخاصتهم.

والرسالة حافلة بكثير من المعلومات التي تتحدث عن الإنسان في شتى أحواله، وأطواره.

وتعد رسالة ابن فضلان مصدراً تاريخياً مهماً للبلاد التي مر بها وكتب عنها.

سترکز الورقة على وصف ابن فضلان للإنسان في تلك البلاد سواء أكان مسلماً، أم يهودياً، أم نصرانياً، أم وثنياً.

شغل أدب الرحلات حيزاً واسعاً من مجالات الأدب العربي، وقد برز في هذا المجال أعلام مشاهير يأتي في مقدمتهم ابن بطوطة، وابن جبير، وابن فضلان⁽¹⁾. وقد عني هؤلاء وغيرهم بالحديث عن الناس الذين التقوا بهم في تلك الرحلات فوصفوا أخلاقهم وطباعهم، وطريقة عيشتهم، وتعاملهم مع الآخرين، وتقاليدهم في الزواج، والدفن، كما وصفوا كذلك معتقداتهم الدينية، وطقوسهم التي يمارسونها.

ورسالة ابن فضلان، التي دَوّن فيها رحلته في عام 921/309م إلى بلاد الترك، والصقالبة، ومشاهداته لبعض الروس والخزر، وغيرهم، تعد واحدة من أهم ما وصل إلينا في هذا المجال وأقدمه.⁽²⁾

يذكر ابن فضلان في رسالته أن ملك الصقالبة، ألمش بن يلطوار، أرسل كتاباً إلى الخليفة العباسي المعتز بالله جعفر بن المعتضد، يطلب فيه منه أن يرسل إليه من «يفقه في الدين، ويعلمه شرائع الإسلام، ويبني له مسجداً، وينصب له منبراً ليقم عليه الدعوة له في بلده وجميع مملكته، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له، فأجيب إلى ما سألت إليه من ذلك»⁽³⁾، ويذكر أيضاً أنه قد كلف قراءة الكتاب على الملك، وتسليمه الهدايا التي أرسلت إليه «والإشراف على الفقهاء والمعلمين. وسبب له بالمال المحمول إليه لبناء ما ذكرناه وللجراية على الفقهاء والمعلمين، على الضيعة المعروفة «بأرثشمين» من أرض خوارزم من ضياع ابن الفرات... فسلمت إليه الهدايا، له ولأمراته ولأولاده، وإخوته، وقواده، وأدوية كان كتب إلى «نذير الحرمي» يطلبها»⁽⁴⁾ أما المال الذي أمر الخليفة بدفعه إلى الملك الصقلبي، وهو أربعة آلاف دينار مسيبيّة، فلم يصل؛ وذلك لأن وكيل ابن الفرات على الضيعة المذكورة، وهو الفضل بن موسى النصراني، قد احتال في عدم تسليم الضيعة إلى من طلب منه تسليمها إليه، وهو أحمد بن موسى الخوارزمي، بل إنه قد تأمر على الأخير حتى اعتقله بمدينة مرو، ولم يسلم الضيعة إليه.⁽⁵⁾ وقد تسبب هذا في خلاف كبير بين الملك وأعضاء الوفد، اتهمهم فيه الملك بالخيانة وكاد ينكل بهم بسببه، وجعله لا يثق في صحة ما نقلوه إليه.. وكان ابن فضلان قد حذر الوفد من السفر من دون الحصول على المال ولكن أعضاء الوفد قالوا له: إن المال سيلحق بهم مع أحمد الخوارزمي، ولم يعلموا أنه قد اعتقل بمدينة «مرو» بأمر من وكيل ابن الفرات الفضل بن موسى النصراني، كما سبق أن ذكرنا.⁽⁶⁾

وقد صرح ابن فضلان بأسماء أعضاء الوفد الذين صحبوه في الرحلة، وهم: رسول السلطان، سوسن الرسي مولى نذير الحرمي، وتكين التركي، وبارس الصقلابي، وكان معهم أيضاً عبد الله بن باشتو الخزري رسول صاحب الصقالبة، إلى جانب عدد من الخدم والقائمين على الدواب وعلى مستلزمات الرحلة. كما ذكر ابن فضلان أن بعضاً من أعضاء الوفد الذين خرجوا معهم من بغداد وهم: الفقيه، والمعلم، والغلمان، قد تأخروا عن الوفد فرعاً من الدخول إلى ذلك البلد⁽⁷⁾.

وقد غادرت القافلة مدينة بغداد في الحادي عشر من شهر صفر سنة 309. الموافق للحادي والعشرين من شهر يونيو 921 م.

وقد عدد ابن فضلان المدن التي مروا عليها، وبين المدد التي أقاموها في كل بلدة. كما ذكر أسماء الأمم والشعوب التي مروا بديارها، ووصف أخلاقها وعاداتها، وشرائعها.

وليس من مهمة هذه الورقة تقصي كل ما تضمنته الرسالة من أخبار ومشاهدات وإنما همها التركيز على ما يتعلق بالإنسان الذي تعامل معه ابن فضلان، أو سمع عنه.

ويمكن أن يتناول حديث ابن فضلان عن الإنسان من عدة زوايا، وذلك وفقاً للعرق البشري الذي ينتمي إليه هذا الإنسان بوصفه، تركيا، أو خزرياً، أو صقلابياً، أو روسياً، أو عربياً، أو غير ذلك. كما يمكن الحديث عنه بوصفه إنساناً مسلماً، أو كتابياً، أو وثنياً.

ولعل الحديث عن الإنسان وفقاً للعرق الذي ينتمي إليه هو أقرب مناسبة؛ لأنه هو الذي شغل به ابن فضلان أكثر من غيره.

الأثر الغزبية

بعدما غادر ابن فضلان ورفاقه مدينة الجرجانية من أرض خوارزم، وهي آخر المدن الإسلامية الكبيرة، دخل إلى بلاد قبيلة من الترك يعرفون بالغزبية، وهم بدو رحل، يسكنون بيوت الشَّعر، وقد وصفهم ابن فضلان بأنهم «كالحمير الضالة لا يدينون لله بدين، ولا يرجعون إلى عقل، ولا يعبدون شيئاً، بل يسمون كبراءهم أرباباً»، وقد ذكر أن أمرهم شوري بينهم لكنهم «متى اتفقوا على شيء وعزموا عليه جاء أربابهم وأخسهم فنقض ما قد أجمعوا عليه»⁽⁸⁾، وقد وصفهم بأنهم لا يستنجون من غائط ولا بول، ولا يغتسلون من جنابة

ولا من غير ذلك وكأن بينهم وبين الماء عداوة، وقد انتقد ابن فضلان نساء الأتراك الغزية على تكشفهن؛ فهن - بحسب قوله-: لا يستترن من رجالهم ولا من غيرهم، كما أن المرأة من نسائهم لا تستر شيئاً من بدنهن عن أحد من الناس⁽⁹⁾، ومع هذا التكشف الظاهر فإنهم لا يعرفون الزنا، ومن اطلعوا منه على شيء من ذلك شقوه نصفين؛ وذلك أنهم يجمعون بين أغصان شجرتين، ثم يشدونه بالأغصان، ويرسلون الشجر فينشق الذي شد إليهما⁽¹⁰⁾.

وقد وصف تقاليد الزواج لديهم فذكر أن الخاطب يتقدم إلى من يريد الزواج من ابنته أو أخته ويتفقان على المهر الذي هو في الغالب أثواب خوارزمية، أو جمال أو دواب أخرى، أو غير ذلك، فإذا دفع المهر المتفق عليه يأتي الزوج «غير محتشم حتى يدخل إلى المنزل الذي هي فيه، فيأخذها بحضرة أبيها، وأمها، وإخوتها فلا يمنعونه من ذلك... وإذا مات الرجل وله زوجة وأولاد تزوج الأكبر من ولده بامرأته، إذا لم تكن أمة⁽¹¹⁾، فإن لم يكمل دفع الصداق فإنه لا يمكن أن يصل إلى زوجه. ولم يصف ابن فضلان تقاليد الزفاف عندهم، ويبدو أنهم لا يقيمون حفل زفاف، أو أن تقاليدهم لم تلتفت نظره، أو أنه لم يشاهد حفل زفاف.

ثم وصف ابن فضلان الكيفية التي يستطيع المسلم بوساطتها أن يجتاز بلدهم ويتقي شرهم؛ فذكر أنه لا بد أن يتخذ من أحدهم صديقاً ينزل عليه ويكون تحت حمايته «وفي مقابل هذه الحماية يحمل المسلم لهذا الصديق من بلد الإسلام ثوباً، ولامرأته مقنعة، وشيئاً من فلفل، وجاورس، وزبيب، وجوز، فإذا قدم على صديقه ضرب له قبة، وحمل إليه من الغنم على قدره، حتى يتولى المسلم ذبحها؛ لأن الترك لا يذبحون، وإنما يضرب الواحد منهم رأس الشاة حتى تموت⁽¹²⁾، والتركي إذا دخل إلى مدينة الجرجانية المسلمة يفعل الشيء نفسه فلا بد أن يتخذ لنفسه صديقاً يحميه⁽¹³⁾.

ماذا يعملون بالمريض وبالمدية

وقد وصف ابن فضلان ما يفعله الترك إذا مرض أحدهم وكيف يتعاملون معه إلى أن يشفى أو يموت، يقول:

«وإذا مرض الرجل منهم، وكان له جوار وعبيد خدموه، ولم يقربه أحد من أهله، ويضربون له خيمة، ناحية من البيوت، فلا يزال فيها إلى أن يموت أو يبرأ، وإن كان عبداً أو فقيراً رموا به في الصحراء وارتحلوا عنه».

وتحدث عن تقاليد الدفن لديهم قائلاً: «إذا مات الرجل منهم حفروا له حفيرة كبيرة كهيئة البيت وعمدوا إليه فألبسوه قرطقه، ومنطقته، وقوسه، وجعلوا في يده قدحاً من خشب فيه نبيذ وتركوا بين يديه إناء من خشب فيه نبيذ، وجاءوا بكل ماله فجعلوه معه في ذلك البيت. ثم أجلسوه فيه فسقفوا البيت عليه، وجعلوا فوقه مثل القبة من الطين، وعمدوا إلى دوابه على قدر كثرتها، فقتلوا منها مئة رأس إلى مئتي رأس، إلى رأس واحد، وأكلوا لحومها إلا الرأس والقوائم، والجلد والذنب، فإنهم يصلبون ذلك على الخشب. وقالوا: «هذه دوابه يركبها إلى الجنة». فإن كان قتل إنساناً وكان شجاعاً نحتوا صوراً من خشب على عدد من قتل، وجعلوها على قبره، وقالوا: هؤلاء غلمانه يخدمونه في الجنة»⁽¹⁴⁾.

كان ابن فضلان يتحدث فيما مضى عن طريقة دفن الرجل، أما تقاليد دفن المرأة فلم يقل شيئاً عنها، ولعل المجتمع الذكوري لا يقيم وزناً للمرأة.

ويرسم ابن فضلان صورة كاريكاتورية لمظهر الرجل التركي ولباسه، فهو يذكر أن الترك كلهم يتنفون لحاهم ويبقون شواربهم، «وربما رأيت الشيخ الهرم منهم، وقد نتف لحيته، وترك منها شيئاً تحت ذقنه وعليه البوستين، فإذا رآه إنسان من بعد لم يشك أنه تيس»⁽¹⁵⁾.

الترك لا يخلعون لباسهم إلا إذا تقطع

وقد وصف هيئة قائد جيشهم المسمى (أترك بن القطغان)، الذي أهدى إليه الوفد هدية تتضمن خلعة ثياب، وزبيباً، وجوزاً، وفلفلاً وغير ذلك. فلما أراد أن يلبس الخلعة التي أهديت إليه نزع الديباجة التي كانت عليه، وقد رأى ابن فضلان «القرطق الذي تحتها وقد تقطع وسخاً؛ لأن رسومهم أن لا ينزع الواحد منهم الثوب الذي يلي جسده حتى ينتثر قطعاً، وإذا هو قد نتف لحيته كلها وسباله فبقي كالخادم»⁽¹⁶⁾ وقد أثنى ابن فضلان على فروسية هذا القائد ومهارته في استخدام السهام، وهاتان الخصلتان مما شهر بهما الترك.

وقد تحدث عن طائفة أخرى من الأتراك يقال لهم (الباشغرد)، ووصفهم بأنهم شر الأتراك، وأفذرهم، وأشدهم إقداماً على القتل، يلقي الرجل الرجل فيفرز هامته، ويأخذها ويتركه. وهم يحلقون لحاهم، ويأكلون القمل، يتتبع الواحد منهم درز قرطقه، فيقرض القمل بأسنانه. ولقد كان معنا منهم واحد قد أسلم، وكان يخدمنا، ورأيتُه وجد قملة في ثوبه، فقصعها بظفره، ثم لحسها، وقال لما رأيته: «جيد»⁽¹⁷⁾.

ديانة الأتراك

أما عن ديانتهم فذكر أن كل واحد منهم ينحت لنفسه خشبة على قدر الإحليل، ويعلقها عليه، فإذا أراد سفيراً أو لقاء عدو قبلها، وسجد لها، وقال: «يارب افعل بي كذا وكذا»، وقد طلب ابن فضلان من أحد التراجمه أن يسأل بعضهم ما حاجتهم في ذلك ولم جعل الإحليل رباً؟ فقال: «لأنني خرجت من مثله فلست أعرف لنفسي خالقاً غيره»⁽¹⁸⁾.

وذكر ابن فضلان أن منهم من يزعم أن له اثني عشر رباً: «للشئاء رب، وللصيف رب، وللمطر رب، وللريح رب، وللشجر رب، وللناس رب، وللدواب رب، وللنهار رب، وللليل رب، وللماء رب، وللأرض رب، وللسموت رب. والذي في السماء أكبرهم، إلا أنه يجتمع مع هؤلاء باتفاق... ومنهم، طائفة تعبد الحيات، وطائفة تعبد السمك، وطائفة تعبد الكراكي»⁽¹⁹⁾.

الصقالبة

الصقالبة هم الجنس البشري الذين أنشئت الرحلة من أجل تلبية طلب ملكهم (ألمش بن يلطوار) من الخليفة العباسي، المقتدر، أن يرسل إليه من «يفقهه في الدين، ويعرفه شرائع الإسلام، ويبنى له مسجداً، وينصب له منبراً ليقم عليه الدعوة له في بلده وجميع مملكته، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له»⁽²⁰⁾، وقد استغرق وصول الوفد إلى بلاد الصقالبة منذ أن غادر الوفد مدينة الجرجانية بمنطقة خوارزم مدة سبعين يوماً. وكان تاريخ الوصول يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من محرم عام 310 للهجرة⁽²¹⁾.

استقبال الملك للوفد وقراءة الكتب عليه

ولما قرب الوفد من الوصول وصار بينه وبين مقر الملك يوم وليلة وجه الملك لاستقباله الملوك الأربعة الذين تحت يده، وإخوته وأولاده، وبعد وصول الوفد بأربعة أيام جمع الملك الصقلبي الملوك، والقواد وأهل بلده ليسمعوا قراءة كتاب الخليفة المقتدر عليه. وقبل قراءة الكتاب عليه أسرجت له الدابة التي سيركها، بالسرج المرسل إليه مع الوفد، وألبسوه السواد، شعار العباسيين، وعمموه، ثم أخرج ابن فضلان كتاب الخليفة وقال للملك: «لا يجوز أن نجلس والكتاب يقرأ»، فقام الملك على قدميه هو ومن حضر من وجوه القوم. وقد

وصفه ابن فضلان بأنه رجل بدين بطين جداً. ثم قرأ عليه كتاب الوزير حامد بن العباس، وهو واقف، ثم طلب منه الجلوس وقرأ عليه بعد ذلك كتاب نذير الحرمي⁽²²⁾.

وبعد الانتهاء من قراءة الكتب نثر أصحاب الملك عليه الدراهم الكثيرة. ثم أخرج ابن فضلان « الهدايا من الطيب، والثياب، واللؤلؤ له، ولامراته، فلم أزل أعرض عليه وعليها شيئاً شيئاً حتى فرغنا من ذلك. ثم خلعتُ على امرأته بحضرة الناس، وكانت جالسة إلى جنبه، وهذه سنتهم وزيبهم، فلما خلعت عليها نثر النساء عليها الدراهم»⁽²³⁾.

المائدة وطريقة الأكل

وقد وصف ابن فضلان تفاصيل المائدة التي أقامها الملك لهم بعد ساعة من ذلك اللقاء، وهي تكشف عما وصلوا إليه من رقي حضاري، يقول:

«دعا بالمائدة فقدمت وعليها اللحم المشوي وحده، فابتدأ هو فأخذ سكيناً وقطع لقمة وأكلها، وثانية، وثالثة، ثم احتز قطعة دفعها إلى «سوسن» الرسول، فلما تناولها جاءته مائدة صغيرة فجعلت بين يديه. وكذلك الرسم، لا يمد أحد يده إلى الأكل حتى يناوله الملك لقمة، فساعة يتناولها قد جاءته مائدة. ثم ناولني فجاءتني مائدة، ثم قطع قطعة وناولها الملك الذي عن يمينه فجاءته مائدة، ثم ناول الملك الثاني فجاءته مائدة، ثم ناول الملك الرابع فجاءته مائدة، ثم ناول أولاده فجاءتهم الموائد. وأكلنا كل واحد من مائدته لا يشركه فيها أحد، ولا يتناول من مائدة غيره شيئاً، فإذا فرغ من الطعام حمل كل واحد منهم ما بقي على مائدته إلى منزله»⁽²⁴⁾.

استعلام الملك عن المال المرسل إليه

ومضت أيام ثلاثة بعد استقبال الملك للوفد وتقديم الهدايا إليه، وقراءة الكتابين عليه، طلب الملك حضور ابن فضلان ليستعلم منه عن أمر المال الذي ورد ذكره في كتاب الخليفة، ومقداره أربعة آلاف دينار. وما أن حضر ابن فضلان حتى رمى الملك إليه بكتاب الخليفة المقتدر، وسأله من جاء بهذا الكتاب؟، فقال ابن فضلان: أنا. ثم رمى إليه بكتاب الوزير حامد بن العباس وسأله من جاء بهذا الكتاب؟ فقال ابن فضلان: أنا. قال الملك: «فالمال الذي ذكر فيهما ما فعل به؟» قال ابن فضلان: «تعذر جمعه، وضاق الوقت، وخشينا

فوت الدخول، فتركناه ليلحق بنا»، فقال: إنما جئتم بأجمعكم، وأنفق عليكم مولاي ما أنفق لحمل هذا المال إلي، حتى أبني به حصناً يمنعني من اليهود الذين قد استعبدوني. فأما الهدية فغلامي قد كان يحسن أن يجيء بها. فقال ابن فضلان: هو كذلك! إلا أنا قد اجتهدنا. فقال الملك للترجمان: «قل له: أنا لا أعرف هؤلاء، إنما أعرفك أنت؛ وذلك أن هؤلاء قوم عجم، ولو علم الأستاذ -أيده الله- أنهم يبلغون ما تبلغ ما بعث بك حتى تحفظ علي (هكذا) وتقرأ كتابي، وتسمع جوابي، ولست أطلب غيرك بدرهم فاخرج من المال فهو أصلح لك»⁽²⁵⁾.

فانصرف ابن فضلان من عند الملك مذعوراً مغموماً، وقد زاد في خوفه المنظر المهيب للملك، وكبر جسمه ونوعية صوته. وقد جمع ابن فضلان أصحابه وأخبرهم بما جرى بينه وبين الملك، وذكرهم بما كان قد قاله لهم: قبل مغادرتهم بلاد المسلمين من أنهم ينبغي أن لا يسافروا إلا والمال معهم؛ لأنه كان يتوقع أن يكون كتاب الخليفة قد ذكر فيه مقدار المبلغ المرسل معهم، ذلك المال الذي احتال وكيل ابن الفرات الفضل بن موسى النصراني في عدم تسليمه. وظل الملك يسائل ابن فضلان أياماً عن المال وابن فضلان يحاول أن يؤيسه منه موضحاً له الأسباب التي حالت دون حمله معهم.

وفي لقاء لاحق مع الملك دار حوار جاد بين وبين ابن فضلان بوساطة الترجمان. لقد طلب الملك من الترجمان أن يسأل ابن فضلان هذا السؤال: ما تقول في رجل دفع إلى قوم ما لا لأقوام ضعفي، محاصرين مستعبدين فخانوه؟ فقلت: هذا لا يجوز وهؤلاء قوم سوء. قال: باختلاف أم بإجماع؟ قلت: بإجماع، فقال للترجمان: قل له: تعلم أن الخليفة -أطال الله بقاءه- لو بعث إلي جيشاً كان يقدر علي؟ قلت: لا. قال: فأمر خراسان؟ قلت: لا. قال: أليس لبعد المسافة وكثرة من بيننا من قبائل الكفار؟ قلت: بلى، قال: قل له: فوالله إنني لبمكاني البعيد الذي تراني فيه، وإنني لخائف من مولاي أمير المؤمنين؛ وذلك أنني أخاف أن يبلغه عني شيء يكرهه فيدعو علي فأهلك بمكاني، وهو في مملكته، وبينني وبينه البلدان الشاسعة. وأنتم تأكلون خبزه، وتلبسون ثيابه، وترونه في كل وقت، وقد خنتموه في مقدار رسالة بعثكم بها إلي، إلى قوم ضعفي، وختمت المسلمين! لا أقبل منكم أمر ديني حتى يجيئني من ينصح لي فيما يقول. فإذا جاءني إنسان بهذه الصورة قبلت منه. فألجمنا وما أحرنا جواباً، وانصرفنا من عنده»⁽²⁶⁾.

يدل هذا الاقتباس الطويل على تمكن الإسلام من قلب الملك، وعلى رزاقته وحلمه، وحسن تأتية، وعلى قدرته على الحوار بأسلوب مقنع، وقد اعترف ابن فضلان بأنه لم يجد جواباً عليه.

واليهود الذين كانوا يهددون الملك هم جيرانه من الخزر الذين كانوا يعتدون على أراضيهم، ويغتصبون نساءه، وهو أراد أن يتبرك بالمال الذي أرسله الخليفة إليه، وإلا فإن خزائنه عامرة بالمال، ولعله كان يبحث عن حليف قوي يدرأ بوساطته الخطر الذي تشكله دولة الخزر اليهودية على سلطانه.

وبعد ذلك اللقاء الذي وصفه ابن فضلان وما تخلله من مكاشفات، ومصارحات، وعتاب قاس، تحسنت العلاقة بين الملك وبين ابن فضلان فصار يؤثره، ويقربه، ويباعد أصحابه، وصار يسميه أبا بكر الصديق⁽²⁷⁾.

وقد تحدث ابن فضلان طويلاً عن عجائب كثيرة رآها في بلادهم ولكن كثيراً منها خارج عن موضوع الإنسان؛ فلذلك لا نتعرض له، ونقصر حديثنا على ما له صلة بالإنسان. ومن ذلك أنه عند حديثه عن أنواع المأكولات ذكر أنهم يعملون من الشعير حساء تطعمه الجوارى والغلمان، وأنهم «ربما طبخوا الشعير باللحم فأكل الموالي اللحم، وأطعموا الجوارى الشعير إلا أن يكون رأس تيس فيطعم من اللحم»⁽²⁸⁾.

لبسهم القلائس ورفعهم لها إذا راوا الملك

وقد ذكر أن الصقالبة «يلبسون القلائس، فإذا ركب الملك ركب وحده بغير غلام، ولا أحد يكون معه، فإذا اجتاز في السوق لم يبق أحد إلا قام وأخذ قلنسوته عن رأسه فجعلها تحت إبطه فإذا جاوزهم ردوا قلائسهم على رؤوسهم، وكذلك كل من يدخل إلى الملك من صغير أو كبير... وكل من يجلس بين يديه فإنما يجلس باركاً ولا يخرج قلنسوته»⁽²⁹⁾.

كيفية اغتسال الصقالبة

وقد تحدث عن كيفية اغتسالهم؛ فذكر أن الرجال والنساء ينزلون إلى النهر «فيغتسلون جميعاً عراة لا يستتر بعضهم من بعض. ولا يزنون بوجه ولا سبب، ومن زنا منهم كائناً من

كان ضربوا له أربع سلك، وشدوا يديه ورجليه إليها وقطعوا بالفأس من رقبتة إلى فخذه، وكذلك يفعلون بالمرأة أيضاً، ثم يعلق كل قطعة منه ومنها على شجرة... ويقتلون السارق كما يقتلون الزاني»⁽³⁰⁾. وقد ذكر ابن فضلان أنه بذل جهداً من أجل أن يستتر النساء من الرجال فلم يوفق.

وقد تحدث ابن فضلان عن العلاقة بين ملك الصقالبة وملك الخزر اليهودي تكشف عن سر استعانة ملك الصقالبة بالخليفة المقتدر، فقال:

«وابن ملك الصقالبة رهينة عند ملك الخزر. وقد كان اتصل بملك الخزر عن ابنة ملك الصقالبة جمال فوجه يخطبها، فاحتج عليه، وردّه، فبعث وأخذها غصباً، وهو يهودي، وهي مسلمة. فماتت عنده، فوجه يطلب بنتاً له أخرى، فساعة اتصل ذلك بملك الصقالبة بادر فزوجها للملك، اسكل، وهو من تحت يده، خيفة أن يغتصبها إياه كما فعل بأختها. وإنما دعا ملك الصقالبة أن يكتب السلطان ويسأله أن يبني له حصناً خوفاً من ملك الخزر»⁽³¹⁾.

وقد سأل ابن فضلان الملك يوماً ما قائلاً:

«مملكك واسعة، وأموالك جمّة، وخراجك كثير، فلم سألت السلطان أن يبني حصناً بجال من عنده لا مقدار له؟ فقال: رأيت دولة الإسلام مقبلة، وأموالهم يؤخذ من حلها، فالتمست ذلك لهذه العلة، ولو أنني أردت أن أبني حصناً من أموالني من فضة أو ذهب لما تعذر ذلك علي. وإنما تبركت بجال أمير المؤمنين فسألته ذلك»⁽³²⁾. ولنا أن نتصور مقدار الخيبة التي لحقت بالملك، الذي أمّل هذا الأمل، عندما لم تصل إليه النفقة بسبب التصرف السيئ الذي تصرفه الفضل بن موسى النصراني، وكيل ابن الفرات.

الروس

رأى ابن فضلان الروس وقد قدموا بتجارتهم ونزلوا على نهر «إتل» وذكر أنه «لم ير أتم أبداناً منهم كأنهم النخل، شقر حمر لا يلبسون القراطق ولا الخفّاتين، ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على أحد شقيه، ويخرج إحدى يديه منه، ومع كل واحد منهم

فأس، وسيف، وسكين لا يفارقه»⁽³³⁾، وقد ذكر أنهم يتخذون الوشم على أيديهم ويكون ذلك على هيئة شجر وصور.

حلي المرأة الروسية

وصف ابن فضلان كيف تتحلى المرأة الروسية وصفاً دقيقاً، فقال:

«وكل امرأة منهم فعلى ثديها حُقَّةً مشدودة إما من حديد، وإما من فضة، وإما من نحاس، وإما من ذهب، على قدر مال زوجها ومقداره، وفي كل حقة حلقة فيها سكين مشدودة على الثدي أيضاً. وفي أعناقهن أطواق من ذهب وفضة؛ لأن الرجل إذا ملك عشرة آلاف درهم صاغ لامرأته طوقاً، وإن ملك عشرين ألفاً صاغ لها طوقين، وكذلك كل عشرة آلاف يزدادها يزداد طوقاً لامرأته. فربما كان في عنق الواحدة منهن الأطواق الكثيرة»⁽³⁴⁾.

قذارة الروس وإباحيتهم

نص ابن فضلان على أن الروس «أقدر خلق الله لا يستنجون من غائط ولا بول، ولا يغتسلون من جنابة، ولا يغسلون أيديهم من الطعام، بل هم كالحمير الضالة. يجيئون من بلدهم فيرسون سفنهم بإتل... ويبنون على شطه بيوتاً كباراً من الخشب. ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر، ولكل واحد سرير يجلس عليه، ومعهم الجوارى الروقة للتجار، فينكح الواحد جاريتته، ورفيقه ينظر إليه، وربما اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحال بعضهم بحذاء بعض، وربما يدخل التاجر عليهم ليشتري من بعضهم جارية فيصادفه ينكحها فلا يزول عنها حتى يقضي أربه.

ولا بد لهم في كل يوم من غُسل وجوههم، ورؤوسهم بأقذر ماء يكون وأطفسه؛ وذلك أن الجارية توافي كل يوم بالغداة، ومعها قصعة كبيرة فيها ماء، فتدفعها إلى مولاهم فيغسل فيها يديه ووجهه، وشعر رأسه فيغسله، ويسرحه بالمشط في القصعة، ثم يمتخط ويبصق فيها، ولا يدع شيئاً من القذر إلا فعله، في ذلك الماء. فإذا فرغ مما يحتاج إليه حملت الجارية القصعة إلى الذي إلى جانبه ففعل مثل فعل صاحبه، ولا تزال ترفعها من واحد إلى واحد حتى تديرها على جميع من في البيت، وكل واحد منهم يمتخط ويبصق فيها، ويغسل وجهه وشعره فيها»⁽³⁵⁾.

يفعلون ذلك كله وهم على شاطئ النهر، ولا يكلفون أنفسهم تبديل الماء.

وتلبّدهم

يذكر ابن فضلان أن الروسية ما إن توافي سفنهم مرسى النهر حتى يأخذ كل واحد منهم خبزاً ولحماً وبصلاً ونبيداً، ويخرج به إلى خشبة طويلة منصوبة، لها وجه يشبه وجه الإنسان وحولها صور صغار، وخلف تلك الصور خشب طوال، قد نصبت في الأرض، فيوافي إلى الصورة الكبيرة، ويسجد لها، ثم يقول لها: يا رب قد جئت من بلد بعيد، ومعني من الجوّاري كذا وكذا رأساً، ومن السمور كذا وكذا جلدًا. حتى يذكر جميع ما قدم معه من تجارته، ثم يقول: وجئتك بهذه الهدية. ثم يترك الذي معه بين يدي الخشبة، ويقول: أريد أن ترزقني تاجرًا معه دنائير كثيرة فيشتري من كل ما أريد، ولا يخالفني فيما أقول ثم ينصرف. فإن تعسر عليه بيعه وطالت أيامه، عاد بهدية ثانية وثالثة، فإن تعذر ما يريد حمل إلى كل صورة من تلك الصور الصغار هدية، وسألها الشفاعة وقال: هوّلاء نساء ربنا وبناته وبنوه فلا يزال يطلب إلى كل صورة يسألها ويستشفع بها ويتضرع بين يديها، فربما تسهل له البيع فباع⁽³⁶⁾.

تقاليدهم عند المردن وعند الدفه

ومن تقاليد الروس أنهم إذا مرض أحدهم «ضربوا له خيمة ناحية عنهم، وجعلوا معه شيئاً من الخبز والماء، ولا يقربونه ولا يكلمونه، ولا يتعاهدونه في كل أيام مرضه، لا سيما إن كان ضعيفاً أو مملوكاً، فإن برئ وقام رجع إليهم، وإن مات أحرقوه، فإن كان مملوكاً تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير»⁽³⁷⁾.

أما إذا كان الميت رئيساً من رؤسائهم أو سيداً جليلاً فإنهم يحرقونه في سفينة، ويحرقون معه أحب الجوّاري إليه، ولهم تقاليد طويلة في التهيئة للإحراق. وقبل الحرق تقوم الجارية التي ستحرق معه برقصات كثيرة ويمارس الجنس معها كثير من الرجال، ثم تُدخِل إلى سفينة الحرق، ويمسك بأطرافها عدة رجال، وتتولى امرأة عجوز طعننها بالسكين عدة طعنات في أنحاء متعددة من جسمها حتى تفارق الحياة، وأثناء طعننها بالسكين تُقرع الطبول من أجل أن لا يسمع صراخها الجوّاري الأخريات، وذلك في مشهد مريع تقشعر له الأبدان، وقد شاهد ابن فضلان بنفسه مشهداً من هذه المشاهد المفزعة⁽³⁸⁾.

الهوامش والمراجع

- (1) أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد: رسالة ابن فضلان، تحقيق: د. سامي الدهان، ط2، بيروت: مكتبة الثقافة العالمية، 1987. وسنشير إلى هذا المصدر فيما يأتي من إحالات باسم (رسالة ابن فضلان).
- (2) رسالة، ص، 73.
- طوقان، أحمد زكي وليدي: أخبار رحلة ابن فضلان، نص وترجمة ألمانية، ودراسة معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ألمانيا، 1414/1994، ص 4.
- هذا، وتوجد دراسات كثيرة عما وصل إلينا من هذه الرسالة، وما أضيف إليها لاحقاً مما قام به الروائي الأمريكي مايكل كريكتن Michael Crichton في عام 1976، وذلك بدمج ملحمة بيوولف Beowulf مع أحداث رحلة ابن فضلان ليخرج برواية عنوانها (أكلة الموتى) مخطوطة ابن فضلان، بخصوص تجاربه مع الرجال الشماليين في عام 922 م.
- انظر على سبيل المثال لا الحصر:
- لطف الله قارئ: "رحلة ابن فضلان بين الواقع والخيال"، مجلة الفيصل، الرياض، العدد 339، أكتوبر- نوفمبر 2004، ص 48.
- د. شاكر لعبيبي، ابن فضلان: مقدمة عن رحلته وملاحظات عن دارسيه، رواد الآفاق/ الرحلة العربية، المغرب منطلقاً وموتلاً، ط 2، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، 2009، ص 368 - 385.
- الموافي، ناصر عبد الرزاق: "سفير الحضارة الإسلامية المفترى عليه"، مجلة الفيصل، الرياض، العدد 259، مايو، 1998، ص 99 - 101.
- أحمد عبد السلام البقالي، مغامرات سفير عربي في اسكاندينافيا منذ ألف عام، انطلاقة من رسالة ابن فضلان لسامي الدهان، وأكلة الأموات لمايكل كرايتن، الرياض، مكتبة العبيكان، ط، 1، 1424/2003. ص 5- 18.
- (3) رسالة ابن فضلان، ص 67 - 68.
- (4) المصدر نفسه، ص 68 - 69.
- (5) المصدر نفسه، ص 77 - 78، 88، 119.
- (6) المصدر نفسه، ص 77 - 78، 118 - 120.
- (7) المصدر نفسه، ص 69، 87.
- (8) المصدر نفسه، ص 91.
- (9) المصدر نفسه، ص 92.
- (10) المصدر نفسه، ص 93.
- (11) المصدر نفسه، ص 93 - 94.
- (12) المصدر نفسه، ص 94 - 95.

- (13) المصدر نفسه، ص 96.
- (14) المصدر نفسه، ص 99 – 100.
- (15) المصدر نفسه، ص 100 – 101.
- (16) المصدر نفسه، ص 102 – 103.
- (17) المصدر نفسه، ص 107 – 108.
- (18) المصدر نفسه، ص 108.
- (19) المصدر نفسه، ص 108 – 109.
- (20) المصدر نفسه، ص 67 – 68.
- (21) المصدر نفسه، ص 113.
- (22) المصدر نفسه، ص 114 – 115.
- (23) المصدر نفسه، ص 115.
- (24) المصدر نفسه، ص 115 – 116.
- (25) المصدر نفسه، ص 119 – 120.
- (26) المصدر نفسه، ص 120 – 122.
- (27) المصدر نفسه، ص 122.
- (28) المصدر نفسه، ص 130.
- (29) المصدر نفسه، ص 131.
- (30) المصدر نفسه، ص 134.
- (31) المصدر نفسه، ص 145.
- (32) المصدر نفسه، ص 146.
- (33) المصدر نفسه، ص 149.
- (34) المصدر نفسه، ص 150.
- (35) المصدر نفسه، ص 151 – 152.
- (36) المصدر نفسه، ص 152 – 154.
- (37) المصدر نفسه، ص 154 – 155.
- (38) المصدر نفسه، ص 155 – 165.